تحليل ظاهرتي الإتباع والإبدال في المحتسب لابن جني
" رؤية صوتية معاصرة".

الدكتور: محمد أحمد سامي أبو عيد

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية إربد الجامعية

جامعة البلقاء التطبيقية– الأردن

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تتبع ظاهرتي الإتباع والإبدال، كما جاءتا في كتاب: " المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات" لابن جني، وهي، أي الدراسة، إذ تسعى لذلك، فإنها لتجعل الصوتيات المعاصرة قطب الرحى في تحليلها للظاهرتين.

هذا، وخلصت الدراسة إلى نتائج متعددة، لعل أظهرها:

– وضع ابن جني مصطلح" الإتباع" بأثر من اللغة المكتوبة، لا اللغة المنطوقة.

– إن كثيراً من حالات الإتباع المرصودة في كتاب" المحتسب"، إنما هي ضرب من الإبدال الصوتي.

– إن بعض الحالات المرصودة في" المحتسب" بوصفها من الإبدال، ليست من الإبدال في شيء.

– يرد الإعلال في" المحتسب" على أنه من الإبدال، وهو ما تتوافق معه الدراسة.

– ترى الدراسة أن ما يقع من إبدال في اللغة، يمكن له أن يتوزع على محاوره على النحو الآتي:

– الإبدال في الحركات القصيرة.

– الإبدال في الحركات الطويلة وأشباه الحركات.

– الإبدال في الصوامت.

هذا، وخلصت الدراسة إلى نتائج أخرى بارزة انطوت عليها صفحات البحث.

*** استهلال:**

ترمي هذه الدراسة إلى تتبع ظاهرتي الإتباع والإبدال، كما جاءتا في كتاب: " المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات" لابن جني، وهي، أي الدراسة، إذ ترمي لذلك،

فإننا لنتكئ في تحليلها للظاهرتين على ما أنجزته الصوتيات المعاصرة من نظريات ورؤى، ولعل، أظهر تلك النظريات والرؤى:

- نظرية الفونيم.
- نظرية الملامح التمييزية.
- نظرية المقطع الصوتي.
- نظرية المورفيم.
- الكتابة الصوتية الدولية.
- تقسيم الأصوات إلى صوامت وحركات وأشباه حركات.
- الفصل بين المنطوق والمكتوب.

*** الإتباع والإبدال(رؤية المحتسب):**

تجدر الإشارة، ثمة، إلى أن ما سيرد، لاحقاً، من عرض للإتباع والإبدال، ليس هو الإتباع في ما هو معهود ومتداول في القراءات القرآنية الصحيحة، بل هو يأتي في إطار ما يرد التكلم عليه على أنه من باب الشذوذ، أي ما ورد من ظواهر لغوية في القراءات القرآنية الشاذة.

وإذا كان الشذوذ، لغة، يؤشر على أن تنفرد عن الجمهور وتندر[1]، أو كما قال أبو الفتح إنه يأتي في لغتهم بمعنى التفرق والتفرد[2]، فإنه في المحتسب إنما يتكلم عن شذوذ في القراءة القرآنية، وهو شذوذ قُيِّد بوصفه خروجاً عن الضوابط الشرعية لا اللغوية.

على أية حال، فإن ما سيتلو من صفحات سيشتمل على عرض لما يشتمل عليه ذاك الخروج، في بابي الإتباع والإبدال، وفق ما جاء به ابن جني في كتاب المحتسب:

*** الإتباع:**

تناول ابن جني" الإتباع" في مواقع متعددة من سفره الخالد" المحتسب"، ضارباً عليه غير مثال مما جاء في شواذ القراءات، ولعل أظهر تلك:

- قراءة أهل البادية:" الحمدُ لُله".
- قراءة إبراهيم بن أبي عبلة وزيد بن علي والحسن البصري:" الحمدِ لِله".

وكان ابن جني وصف القراءتين بالشذوذ، قياساً واستعمالاً، هذا في مبدأ الكلام، لكنه عاد، رغم ذلك، ففضل قراءة أهل البادية على قراءة الآخرين لاعتبارات عددها، فقال(3):

– إن أقيس الإتباع أن يكون الثاني تابعاً للأول.

– إن ضمة الدال في" الحمدُ" إعراب، وكسرة اللام في" لِله" بناء، وحرمة الإعراب أقوى من حرمة البناء.

– إن الأشيع في اللغة هو أن يغير الأول الثاني لا العكس، ومن هنا، كَثُرَ:" عُنُق، وطُنُب"؛ وقلَّ:" إِبِل وإِطِل".

وعليه، فقد تحقق الأقيس في الإتباع في" الحمدُ لُله" وما تحقق في" الحمدِ لِله"، مع التنبه إلى أن الأقيس، ثمة، طابق الشيوع في الاستعمال؛ إذ إن" الحمدُ لُله" تشتمل على تغيير من الأول للثاني، في حين إنَّ" الحمدِ لِله" هو تغيير من الثاني للأول، وهو ما يجعل " الحمدُ لُله" تقابل ما كثر من" عُنُق" و" طُنُب"، ويجعل" الحمدِ لِله" تقابل ما نَدُر وقلَّ من " إبِل" و" إِطِل".

أما النظر من جهة الإعراب والبناء، فمفهوم من منطوق ابن جني أنه يُغَلِّبُ هو الآخر قراءة أهل البادية على القراءة الأخرى؛ ففي قراءة" الحمدُ لُله" تغيرٌ في الحركة الصرفية لمورفيم الجر" لِ"، مما جعل الضمة تتبع اللام بدلاً من الكسرة:

$Li \rightarrow Lu$

وهو تغيرٌ في حشو الكلمة لا إشكالَ منظوراً فيه، من جهة الأثر على المعنى، أما من قرأ:" الحمدِ لِله"، فقراءته اشتملت على تغير في العلامة الإعرابية دليلة المعنى في " الحمدِ"، فبدلاً من الضمة جاءت الكسرة، وعليه، يكون الإتباع، هنا، جالباً للإشكالات الدلالية النابعة من غياب الإعراب المفترض.

إن الإتباع في" الحمدِ لِله"، ليس، وفق ما ترى الدراسة، إلا نظيراً للإتباع في المثال النحوي شهير التداول" جُحرُ ضبٍ خربٍ"، فقد تغيرت العلامة الإعرابية، في " خربٍ" من تنوين الضم إلى تنوين الكسر، وبعبارة أكثر حداثة وعلمية: تغيرت العلامة الإعرابية من الضمة إلى الكسرة، إذ التنوين" النون" ثابت في الحالين، وما تغير هي الحركة القصيرة، وذلك وفقاً لما تكشف عنه الكتابة الصوتية الدولية:

$xaribun \rightarrow xaribin$

$U \rightarrow i$

ورغم تلك الحالة من التماثل المبسوط، أعلاه، بين المثالين:" الحمدِ لِله"، و" جُحر ضبٍ خربٍ"، إلا أن النظر إلى المثال الأول:" الحمدِ لِله" جاء بوصفه يقع في باب الشذوذ، في حين تَفَلَّتَ المثال الثاني:" جحر ضبٍ خربٍ" من ذلك التوصيف؛ وليس ذاك إلا لأنَّ النحوي نجح في أن يخرِّج المقولة:" جحر ضبٍ خربٍ"، بما يتوافق مع القواعد المشهورة والقياسية، بافتراضه بنية أصلية للتركيب، تكون على نحو من:" جُحرُ ضبٍ خربٍ جحرُه"؛ في حين عسر على ذات النحوي أن يأتي بمثل هذا التخريج حين نظر في التركيب" الحمدِ لِله"، وعليه، وقعت القراءة في خانة الشذوذ.

وكان ابن جني ذكر هاتين القراءتين على صفحات الخصائص، مطلقاً على ما جرى فيهما إدغاماً صغيراً، والإدغام، هنا، جاء من التقريب بين الصوتين في موضعين مختلفين(4).

على أنَّ الدارس الحالي لا يميل إلى التوافق وابن جني في تسميته لما جرى بالإدغام، بل هو، أي: الدارس، للإتباع أميل، هذا من جهة مبدأ التحليل، فما جرى، ثمة، هو أن حركة تبعت حركة أخرى، والإتباع، هنا، اقتضى أن نستبدل حركة بأخرى، ففي القراءة الثانية استبدلت الكسرة بالضمة، وهو ذات ما جرى في المثال المشهور" جحرُ ضبٍ خربٍ".

إن ما بُسط، أعلاه، ليجعل الدارس ينظر لما وقع من إتباع أو إدغام، وفق اصطلاحي ابن جني، ليس إلا إبدالاً، لكنه، ثمة، إبدال للحركة بالحركة، وفي ظني، أن ما جعل ابن جني يحيد عن أن يصطلح على ما جرى بالإبدال، هو طبيعة النظر التراثي للحركات، بوصفها ملحقة بالحروف، أي هي ملحقة ومضافة للسواكن وللحركات الطويلة ولأشباه الحركات؛ فهي تابعة لتلك الأصوات، وليست مستقلة عنها؛ وذلك بما يناظر ما وردت عليه تلك الحركات في واقع المكتوب العربي، إذ هي في ذلك المكتوب إما فوقية وإما تحتية، فهي ترسم فوق الحرف أو تحته؛ وما جاء رسمها مستقلاً، بالتوازي مع رسم الصوامت والحركات وأشباه الحركات أو بالتوازي وما أطلق عليه بالاصطلاح التقليدي: " حروف"، فالحركة القصيرة ليست حرفاً، كما الحركة الطويلة، أو كما شبه الحركة، أو كما الصامت، لأنه ليس لها تمثيل مستقل في الكتابة العربية.

وكان هذا النظر لواقع الحركة القصيرة في المكتوب انتقل، في تحليلات الأقدمين، للنظر في المنطوق، وهو ما جلب إشكالات مفهومية كثيرة، منها ما تراه

الدراسة الحالية من إقصاء لما سمي بالإتباع أو الإدغام من باب الإبدال؛ وإلا، فلولا تلك الحالة من انعكاس المكتوب على المنطوق، لكان النظر القديم عدَّ ما سماه الإتباع إبدالاً، فهو منه ولا ينفصل عنه، لا بل إنه، وكما سيتضح، في مواضع آتية، أدخل في الباب مما أدخل فيه عنوة، وهو ليس منه.

على أية حال، فإن الإبدال في هذين الموضعين هو، من جهة أخرى، ليس إلا نزوعاً من اللغة للتماثل، بدلاً من التخالف، فاللغة، وكما سطَّر ذلك اللسانيون المعاصرون ما برحت أن تكون إلا بين قطبي الثنائية(5): التماثل والتخالف، وهي، ثمة، جاءت على التماثل، طلباً منها للانسجام الصوتي وطلباً منها لإيقاع صوتي مختلف، وإن كان ذلك الانسجام والإيقاع أتى ضارباً، بعرض الحائط، العلامة الإعرابية، كما في القراءة الثانية " الحمدِ لِله".

وكان الأنباري كشف عن الغاية من الإبدال الحركي في مثل تلك الأمثلة بالقول: إن العرب" كسروا ما يجب القياس ضمه، وضموا ما يجب كسره للإتباع طلباً للمجانسة"(6).

كان ذلك عرضاً للإتباع أو الإبدال الحركي بين حركتين، إذ جاءتا في كلمتين مختلفتين، أما ما جاء منهما في كلمة واحدة، فقد مثَّلَ عليه ابن جني بكل من:

- قراءة زهير الفُرُقُبي" جناتٍ ونُهُر"(7).
- قراءة الأعمش:" إلا رُمُزا"(8).
- قراءة محمد بن السَّميفع:" قَرَحٌ"(9).
- ما رواه روح عن أحمد عن عيسى:" بقُرُبان"(10).
- قراءة طلحة:" رُطُباً جِنِيا"(11).

وأما قراءة زهير" جناتٍ ونُهُر"، فعدها ابن جني شاهداً على تكسيرهم" فَعَل" على " فُعُل"، ويرد مثلها في اللغة، كما في" أُسُد" من" أَسَد"، و" وُثُن" من" وَثَن".

وكرة أخرى، فإن ما جرى، ثمة، هو إبدال للحركات القصيرة بحركات أخرى مثلها في القصر، فقد استبدل الناطق اللغوي بالفتحتين ضمتين، مع التنبه إلى أن ليس من إتباع، هنا، فلم تتبع حركةٌ حركةً أخرى:

$$nahar \rightarrow nuhur$$
$$^{\partial}asad \rightarrow {}^{\partial}usud$$
$$wa\theta an \rightarrow wu\theta un$$

وقد تكون" نُهُر" متولدة عن" نَهُر"، وهي كلمة تشيع وأضرابها في العاميات المعاصرة، ومنها عامية الأردن، كما في:" بَكُر، عَصُر، فَجُر"، هذا في المرحلة الأولى، وهي مرحلة تولدت فيها" نَهُر" عن" نَهْر"، وفي مرحلة ثانية، جرى إبدال حركي، فاستبدل الناطق اللغوي" نُهُر" بـــ" نَهُر"، من باب طلب التجانس والمماثلة الصوتية، ومثلها ما جرى في أُسُد ووُثُن.

أما قراءة الأعمش" رُمُزاً"، فسار الإتباع فيها، وفق رؤية ابن جني، على مرحلتين[12]:

– المرحلة الأولى: وفيها، ظهر التنوع" رُمْز" مقابلاً لـــ" رَمْز"، وكان ذلك من باب التنوع اللهجي.

– المرحلة الثانية: وجاء الإتباع فيها، بأن تلت الميم ضمة بأثر من ضمة الراء:

rumz $\rightarrow$ rumuz

وكان ابن جني استند في رؤيته تلك إلى ما حكاه أبو الحسن عن يونس أنه قال: " ما سُمِعَ في شيء" فُعْل" إلا سُمِعَ فيه" فُعُل""[13].

ويأتي تصور الدراسة مقلوباً عما تصوره ابن جني في تحليل الظاهرة، وعليه، يرى الدارس أن ما جرى هو أن الكلمة" رَمْز" صارت" رَمُز"، وذلك وفقاً لما تُنطق به الكلمة في العاميات المعاصرة، كان ذاك في مرحلة أولى من التطور، أما في المرحلة الثانية، فحدث الإبدال الحركي الإتباع طلباً للتجانس الصوتي، فصارت الكلمة على ما هي عليه في نصوص ابن جني: رُمُز؛ إن مثل هذا التحليل يستند إلى أمرين:

– الأول منهما يأخذ برواية اللهجات المعاصرة، بوصفها، وفي كثير من ملامحها، امتداداً للهجات القديمة، وعليه، فليس من بعد التناول أن تكون" رَمُز" المعاصرة استمراراً لـــ " رَمُز" الكلاسيكية.

– وأما ثاني الأمرين: فيتصل برؤية الدراسة ورؤية الأقدمين أنفسهم، من أن الإبدال الحركي الإتباع لا يقع في كثير من أحواله إلا طلباً للتجانس والمماثلة الصوتية، وهو ما يتحقق في الانتقال من" رَمُز" إلى" رُمُز"، ولا يتحقق، بوضوح، في الانتقال من" رُمْز"، إلى" رُمُز".

وأما ما قرأ به ابن السَّميفع" قَرَحٌ"، فيعرض له ابن جني، وفق رؤيتين[14]؛ الرؤية البصرية، وهي ترى أن التحول من" قَرْح" إلى" قَرَح"، هو بأثر من التنوع اللهجي (لغات)، وأما الرؤية الأخرى، فبغدادية، ترى أن ذلك الإبدال جرى بفعل حرف الحلق،

فالحاء الحلقية يفتح ما قبلها كما تفتح نفسها، فيما كان ساكناً من حروف الحلق، واستشهد الرجل على ذلك بقولهم في" الصَّخْر":" الصَّخَر"، وبقولهم في" النَعْل":" النَّعَل"، وكذلك سمع ابن جني من عقيل قولهم في" نَحْوَه":" نَحَوَه"، وسمع الشجري يقول في بعض كلامه:" أنا مَحَموم".

والحق، أنَّ الرؤيتين لا تتناقضان، فالتحول من" قَرْح" إلى" قَرَح"، هو تحول لهجي بلا شك، ومثله كثير من نظائره من التحولات، لكنَّ هذا التحول إلى" قَرَح" أو الرفض للنطق بالكلمة" قَرْح"، عند بعض العرب، أمر يحوجه التفسير، وهو ما دفع ابن جني والبغدادين إلى القول بأنه تحول يرتهن بحروف الحلق، إذ جاءت الراء في" قرْح" قبل الحاء، ومن ثمَّ وقع عليها الفتح.

على أية حال، فإن الدراسة لا ترى نفسها تتوافق مع ذلك التفسير، إذ هي ترى فيه انعكاساً للنظر في الكتابة لا في النطق، فالتغير في الكلمة كان بأن تلت الراء فتحة، بعد أن كانت تتلوها الحاء:

qarħ → qaraħ

وهو تغير في المتوالية الصوتية" قَرْح"، جرى طلباً للتماثل والانسجام مع الحركة " الفتحة القصيرة" التالية للقاف.

وعليه، فإن ما جرى ليس يرتبط بحروف الحلق، بل هو يرتبط بميل ابن اللغة في هذه المواضع إلى الهروب من تسكين الوسط في بنية" فَعْل"، وعلى ذلك تأتي أمثلة من مثل:" كَبِد" بدلاً من" كَبْد"، و" رِجِل" بدلاً من" رِجْل"، و" فَخِذ" بدلاً من" فَخْذ"، ومثل ذلك ما جرت عليه العاميات المعاصرة في قولها::" سَبِت" و" عَصِر" و" عَصُر" و" كَلِب" و" نِسِر".

أما في الكلمات:" قَرَح" و" صَخَر" فهرب الناطق اللغوي من التسكين، لكنه مال، أيضاً، إلى أن يقترن ذلك الهروب بتحقق المماثلة الصوتية والانسجام، فأتى بحركة مماثلة للحركة السابقة:

qarħ → qaraħ

إن ما جرى، ثمة، ليس إتباعاً ولا إبدالاً، من الوجهة الصوتية المعاصرة، فلم يبدل شيء بشيء آخر، بل إن الراء كانت متلوة بالحاء، فصارت متلوة بالفتحة القصيرة، وظلت الحاء، لكنها تلت الفتحة.

وليس، ثمة، من إتباع إلا وفق من نظر في المكتوب لا المنطوق، فالنظر في المكتوب يرينا أن الراء الساكنة صارت راءً مفتوحة، اتباعاً للقاف المفتوحة، وذلك من

باب أن الحركات القصيرة ليست وحدات صوتية مستقلة تقع في متوالية نطقية حالها كحال بقية الأصوات(الحروف)، ولكنها، أي الحركات القصيرة، وبضم علامة السكون إليها، وهي علامة كتابية محضة لا يقابلها شيء في المنطوق، ليست إلا زوائد تابعة للحروف فترسم فوق الحرف أو تحته، ومن هنا، جاء القول بالإتباع، إذ هو أي الإتباع على ذلك، مصطلح كتابي، جاء من النظر في المكتوب باعتبار أن الراء تبعت القاف في" قَرَح"، بأن علَتها الفتحة القصيرة، كما علَت القاف.

وقد يكون تحول الناطق اللغوي من" قَرْح" إلى قَرَح" هروباً من تكون الكلمة من مقطع واحد طويل مغلق في" قَرْح":

س ح س س = qarħ

إلى مقطعين قصيرين، واحد قصير مفتوح" س ح" = قَ، qa؛ وآخر قصير مغلق س ح س؛ raħ إن هذا الانتقال إنما هو ميل من ابن اللغة إلى السهولة النطقية، وهو يأتي، ثمة، امتثالاً، للاقتصاد اللغوي، وامتثالاً لما تكلم عليه اللسانيون الاقتصاديون من القول بقانون الجهد الأقل والسهولة(15).

وأما ما قرأه روح عن أحمد عن عيسى" قُرُبان"(16)، فجرى، كذلك، طلباً للسهولة النطقية، وتطبيقاً لذات الرؤى الاقتصادية اللغوية، فالكلمة" قُرْبان" تتكون من مقطعين:" قُرْ" س ح س، وهو مقطع قصير مغلق؛ و" بان" وهو مقطع قصير مغلق، أيضاً، س ح س؛ وهروباً من توالي هذين المقطعين المتماثلين، لجأ الناطق اللغوي إلى أن يضيف حركة قصيرة بعد الراء، حقق بها غايتين، أما الأولى، فالانسجام والمماثلة الحركية، وأما الثانية، فَشَطر الكلمة إلى مقاطع ثلاثة بدل مقطعين، الأول والثاني منهما جاءا مقطعين قصيرين مفتوحين:" قُـــ" س ح؛ و" رُ" س ح؛ وأما المقطع الثالث فقصير مغلق" بان"" س ح س.

وأما قراءة طلحة" رُطُباً جنِياً"، فيرى ابن جني أن الإتباع ثمة، إنما جاء بأثر من النون التي تشبه، عنده حرف الحلق، وذلك لتفاوتهما، فالنون متعالية وهن سوافل، فكل في شقه مضاهٍ لصاحبه، والعرب تجري مجرى نقيضه، كما تجريه مجرى نظيره، ألا تراها قالت:" طويل"، كما قالت:" قصير"(17).

والحق أن الأمر لا يكون على هذا النحو، فحروف الحلق ليست هي الأبعد مخرجاً، بل، الأبعد منها حرفا الحنجرة: الهمزة والهاء، لكن القدماء ضموا هذين الحرفين

لحروف الحلق ظناً منهم أنها، جميعاً، من مخرج واحد، في حين إن الواقع الصوتي، ووفق الرؤية المعاصرة، يشير إلى خلاف ذلك[18].

إن التحول من الفتحة إلى الكسرة في" جِنيا" ليس له علاقة بالنون، البتة، بل هو بأثر من الكسرة التي تتلو النون، واستبدال الكسرة بالفتحة ليس إلا إبدالاً حركياً وقع لطلب التجانس والمماثلة.

janiyya → jiniyya

a → i

وميلاً منه إلى تأصيل الظاهرة، راح ابن جني يأتي بأمثلة على ما أسماه الإتباع من كلام العرب، ومن ذلك قوله[19]:

– وقال اضرب الساقين إِمِّك هابل

وهو إتباع لم يُطِح بالحركة الصرفية، ثمة، بل هو أطاح بالعلامة الإعرابية (ضمة الرفع) في" أمُّك"، ضارباً بها عرض الحائط، وذلك، طلباً للتجانس والمماثلة، وإيثاراً من الناطق اللغوي للموسيقى على حساب الإعراب، مع التنبه إلى أن المعنى ثمة، قد أمن اللبس.

ومن ذلك الإتباع ما نقل عن طَرَفَة[20]:

– وراداً وشُقُرا

ومن ذلك الإتباع ما جاء في كلام العرب المنثور من قولهم:" السُلُطان والقُرُفْصاء ومُنُتُن ومُنحَدُر وأُنبُؤك[21] والشِّخير والنِّخير والشِّعير والبِعير والرِّغيف[22].

إن تلك الألفاظ ليست إلا من مألوف لهجاتنا البدوية المعاصرة، وهي القاعدة والمعيار في تلك اللهجات، وهي ألفاظ جرى فيها الإبدال الحركي باستبدال حركة قصيرة بأخرى.

وليس الإبدال، ثمة، يرتبط بحروف الحلق، كما أشار إلى ذلك ابن جني[23]، بل هو يأتي معها ومع غيرها من الأصوات، كما في واقع لهجاتنا البدوية المعاصرة في قولهم:" سِليم وسِميد ورِجيم وكِريم ونِسيم"، وعليه، يمكن لنا أن نقول إن بنية" فَعيل" في الفصحى تحولت بالكامل لبنية" فِعيل" في تلك اللهجات.

*** الإبدال في المحتسب:**

عرَّف ابن يعيش البدل بقوله:" البدل أن تقيم حرفاً مقام حرف، إما ضرورة وإما صنعة واستحساناً[24].

إن مثل هذا التعريف إنما يمثل الرؤية التقليدية في النظر للإبدال، وهو يضعنا أمام جملة من الاعتبارات:

– إن الإبدال عند الأقدمين هو أن تبدل حرفاً بحرف، وهذا قادهم إلى النظر في المكتوب لا المنطوق.

– إن نظرهم في المكتوب جعلهم يحصرون الإبدال في تلك الأصوات الممثلة برسوم في الأبجدية العربية وهي الأصوات الصوامت والحركات الطويلة وأشباه الحركات.

– إن غياب التمثيل الكتابي لأصوات الحركات القصيرة في الأبجدية العربية بالتوازي مع التمثيل لبقية الأصوات، جعل الأقدمين لا ينظرون إلى إبدال حركة قصيرة بحركة أخرى قصيرة، على أنه من الإبدال، بل هم أطلقوا على ذلك تسميات أخرى، من مثل الإتباع والإدغام.

– إن مصطلح" الإتباع" إنما يجسد هذهِ النظرة الإقصائية للحركات القصيرة، وهي نظرة تأخذ بالاعتبار أن تكون علاقة الحروف بالحركات القصيرة علاقة تبعية، أي إن الحرف الصامت تبع حرفاً آخر، فلحقته حركة الآخر، فالمصطلح، ثمة، ينظر للحركات القصيرة كتوابع للحرف لا مستقلة عنه، إن هذهِ النظرة إنما تنبع من التأمل في المكتوب لا المنطوق، وتنبع من النظر للحركات على أنها فوق الحرف أو تحته.

– لو نظر الأقدمون في المنطوق، لجعلوا الإبدال إبدال صوت بصوت، بغض الطرف عن التمثيل من عدمه في مكتوبات الأبجدية العربية.

وعلى ذلك، فإن الدراسة وقبل أن تلج باب الإبدال، وفق رؤية المحتسب، لا مناص لها من أن تجزم بأن ما أطلق عليه الإتباع في ما سلف من صفحات، ليس إلا من الإبدال الصوتي، إذ هو إبدال صوت بصوت آخر، وليس الإتباع، مصطلحاً، إلا نتاجاً للنظر في المكتوب، وهو لا يقوى على أن يكون أداة نافعة في فهم الواقع اللغوي وتحليله.

على أية حال، فإن ما جاء به ابن جني من شذوذ الإبدال في المحتسب، إنما يأتي ممثلاً لمجمل الرؤية التقليدية للباب، وعلى ذلك فإن تحليل رؤية المحتسب إنما هو تحليل في الآن نفسه، لمجمل الرؤية التقليدية؛ وكان الإبدال في المحتسب، جاء وفق التوزيع الآتي:

– <u>إبدال الألف ياء:</u>

ومما جاء منه، من شذوذ القراءات:

– قراءة أبي الطفيل وعبد الله بن أبي إسحق وعاصم الجحدري وعيسى بن عمر الثقفي: " هُدَيّ".

قال أبو الفتح:" هذهِ لغة فاشية في هذيل وغيرهم، أن يقلبوا الألف من آخر المقصور إذا أضيف إلى ياء المتكلم ياء[25].

إن التوصيف العلمي لما حدث في هذه القراءة الشاذة، تمثله الكتابة الصوتية:

hudaay $\rightarrow$ huday

aa $\rightarrow$ a

وعليه، فلا إبدال في هذهِ القراءة، بل هو تقصير للحركة، الفتحة الطويلة، لتكون فتحة قصيرة، إن اعتراض الدراسة الحالية على القول بالإبدال، لا يجعلها تقبل زعم زاعم أن ما جرى هو إبدال الفتحة الطويلة بفتحة قصيرة، ذلك أن الرؤية التقليدية لا تقصد بالإبدال ذلك، فهي، أي: الرؤية التقليدية، تعتقد بوجود الفتحة قبل الألف، في:" هدَاي"، وعليه، فالفتحة في" هُدَي"، هي ذات الفتحة، وليست اختصاراً للألف، فالإبدال، عندهم، جاء بعد النظر في المكتوب، وملاحظة التحول في الشكل الكتابي: هُداي ← هُدَيّ.

فالتحول الكتابي، أعلاه، يشي بسقوط رسم الألف ويشي بتكرر الياء بظهور " الشدَّة"، ومن ثم، فإنه ليوقع بوهم أن الألف أبدلت ياءً.

أما التحليل الذي قدمناه للقراءة، فلا يقر بوجود الفتحة قبل الألف في" هُداي"، بل هو ينظر لها كإرث ورثناه عن الكتابة السريانية[26]، يقضي بإثبات رسوم الحركات القصيرة قبل الحركات الطويلة؛ فالضمة قبل الواو، والفتحة قبل الألف والكسرة قبل الياء، على أن هذِه الرسوم لا نظير لها في الواقع المنطوق، فهي صفر، نطقياً ومعجمياً، لكنها تحفظ منزلة في الكتابة، وحدها.

وعلى ذلك، فإن التحليل، ثمة، ليعود فيؤكد أن ما جرى هو اختزال للفتحة الطويلة لتكون فتحة قصيرة، ومن ثمَّ، فلا إبدال مطلقاً.

وكان ابن جني أتى بشواهد من كلام العرب، على هذِه الحالة من الإبدال المزعوم، وذلك، كما في:

قول الشاعر[27]:

سبقوا هَوَيَّ واعنقوا لهواهم

فتحزموا ولكل جنب مصرع

ومن ذلك، ما نقل عن العرب من قولهم:" هذهِ عَصَيْ، ورأيتُ حُبلَيْ[28].

من جهة أخرى، تجد الدراسة نفسها تختلف مع ابن جني في ما نقله عن شيخه أبي علي الفارسي من أن ما جرى في هذهِ الكلمات هو ذات ما جرى في قولك: مررت بالزيدين، في أنهم" لما لم يتمكنوا من كسر الألف للجر قلبوها ياءً"(29)، فالتحليل الصوتي يظهر أن ما جرى في" الزيدين" واقع مختلف، تماماً.

zaydaani → zaydayni

aa → ay

فقد اختُزلت الفتحة الطويلة، وأُضيفت الياء، وعلى ذلك، تكون الفتحة الطويلة، aa، في" الزيدان" علامة للرفع، والازدواج الحركي" ay" علامة للنصب والجر.

كان هذا عرض مبتغاه نفي علاقة ما جرى في الكلمات السابقة بما جرى لـــ " الزيدان" في حالتي الجر والنصب" الزيدين"، وهو متكأ لعرض ما رآه سيبويه من أن الإبدال المزعوم في:" أفعيْ" و" عَصَيْ" و" فتيْ"، وما جرى على شاكلتها، إنما تمَّ لأنه أبين للعرب في حال الإمالة، لأنه بالإمالة ينحو نحو الياء(30).

والحق، أن حالة الإمالة مختلفة، تماماً، عن حالة الوقف على الياء في" أفعيْ"، وهو عين مثال سيبويه:

الوقف على الياء = $^{\partial}af^{6}ay$

الإمـــــالـــة = $^{\partial}af^{6}ee$

فـــــ" أفعَيْ" انتهت بازدواج حركي، وأما اللفظ الممال فانتهى بحركة طويلة /è/، لم تعرفها الفصحى وعرفتها اللهجات القديمة والمعاصرة.

- <u>إبدال الألف واواً:</u>

ومما جاء على ذلك قراءة الحسن(31):

" يومَ يُدْعَوْ كلُّ أناس"

قال أبو الفتح معلقاً على هذه القراءة" هذا على لغة من أبدل الألف في الوصل واواً، نحو:" أَفْعَوْ" و" حُبْلَوْ".

إن ما جرى في هذه القراءة لتظهره الكتابة الصوتية على نحو مخالف لما يُظهره المكتوب العربي، وهو متكأ اللغويين العرب في التحليل:

$yud^{6}aa \rightarrow yud^{6}aw$

وعليه، فقد اختُزلت الفتحة الطويلة، لتكون فتحة قصيرة، وعوض عن الاختزال، بالعودة للواو شبه الحركة الأصلية، فتشكل انزلاق حركي" aw"، عادة ما ترغب العربية بالتخلص منه، كما يجري في التحول من" قول" إلى" قال":

$$qawala \rightarrow qaala$$
$$w \rightarrow \phi$$

فالناطق اللغوي في" يُدْعَو"، إنما عاد لما سبق أن تخلص منه في أكثر اللغة، وعليه، فلا إبدال، وإنما اختزال وتعويض بالرجوع للأصل، أو لنقل إن هذهِ الصيغة هي الصيغة الأصلية التي انحرف عنها الناطق اللغوي بقوله: يدعا" yud^6aa"، وعلى ذلك، فالمحلل اللغوي يجد نفسه أحوج لتفسير الصيغة الثانية لا الأولى الأصلية، إذ هي البنية الصرفية العميقة، أو لنقل: هي لغة من حافظوا على الأصل، والإبدال تم منها إلى الصيغة الأخرى لا العكس.

وكان ابن جني، نصَّ على أن أكثر هذا القلب إنما هو في الوقف، لأن الوقف من مواضع التغيير، وهو، أيضاً، في الوصل يحكي عن حاله في الوقف(32)، ومما ورد في الوصل، قولهم:" هذهِ حُبلَو يا فتى"(33).

إنه، وبغض الطرف عن أن ذلك وقع في لغة الوقف أو الوصل، فإنه يجري وفقاً لما هو مبسوط في تحليل القراءة القرآنية الشاذة، أعلاه.

وكان سيبويه نسب هذهِ اللغة إلى بعض طيء، وجعل العلة في اختيارهم للواو لا الياء بدلاً من الألف أن الواو أبين من الياء، وأنهم لم يجيئوا بغيرها، لأنها تشبه الألف في سعة المخرج والمد، واحتج سيبويه لهذهِ اللغة بأن الألف تبدل مكان الواو، كما تبدل مكان الياء وتبدل الواو والياء مكان الألف، أيضاً، وهن أخوات(34).

إن ما جاء به سيبويه ليجعلنا نقف عند ما هو آتٍ:

– إن الواو في" يُدعَو" ليست نظيراً للألف في" يُدعا"، لأن الانزلاق الحركي في" يُدعَو" قابل الفتحة الطويلة في" يُدعا".

– إن الإبدال بين الواو والياء والألف واقع تعرفه العربية، لكنه، ثمة، من الواو إلى الألف.

– إن اللفظ:" يُدعَو"، ثمة، هو عود من طيء للأصل.

– <u>الإبدال في الصوامت:</u>

وقد أتى المحتسب على ذلك بقراءتين:

– ما جاء على رواية" فالطجع"، وهي على إبدال اللام من الضاد[35].

– ما سمعه عمر عن رجل يقرأ:" عتى حين"، فقال عمر، من أقرأك؟ قال: ابن مسعود[36].

أما ما جرى في:" فالطجع"، فلا ترى فيه الدراسة إبدالاً بين اللام والضاد، ولكن الكتابة توحي بذلك، كرة أخرى، لأن الضاد حذفت من الكلمة المكتوبة، وحلت مكانها.

إن أصل الرواية في" الطجع" هو:" اضطجع"، وكانت جرت فيها المماثلة على النحو الآتي:

افتعل = اضتجع

ويمكن ملاحظة التحول من اضتجع إلى اضطجع بالمعادلة الفونولوجية الآتية:

ت[– مفخم] ← ط[+ مفخم]/ ← – ض[+ مفخم]

فالطاء في" اضطجع" هب تاء في الأصل، لكن تأثرها بالضاد المفخمة ومن باب المماثلة حولها إلى طاء، فكانت مماثلة تقدمية تأثرت فيها التاء بالضاد.

وفي مرحلة ثانية، أبدل الناطق اللغوي اللام بالضاد، ولا غرابة في ذلك، فالضاد القديمة، كانت مشوبة باللام، بل هي قريبة الشبه بها، أو هي جانبية مثلها، وهي من مخرجها، أو أقرب ما تكون إلى مخرجها[37]، ولعل هذا الشاهد:" الطجع" يكون دليلاً يسعف كثيراً من الأصواتيين المعاصرين على القول بضاد قديمة وضادٍ معاصرة، وبأن وصف الأقدمين للضاد لم يكن وصفاً للضاد المعاصرة، وإنما كان وصفاً لضاد أقرب ما تكون للام، وهو ما تصورته كثرة من الدراسات الصوتية المعاصرة، من جانب آخر، فإنَّ الضاد واللام المعاصرتين تجمعهما قرابة مخرجية وصوتية، إذ اللام صوت لثوي، والضاد صوت أسناني، وهما مجهوران، والضاد مفخمة، واللام ترد مفخمة وترد مرققة[38].

أما إبدال العين حاءً في قراءة ابن مسعود:" عتى حين"، فعلَّقَ ابن جني على القراءة بالقول:" إن العرب تبدل أحد هذين الحرفين من صاحبه لتقاربهما في المخرج"[39].

والحق أن الإبدال هنا، لا لتقارب المخرج، بل لأن المخرج واحد، وهو الحلق، والحاء والعين صوت واحد لا فرق بينهما إلا بالجهر والهمس، إذ العين هي النظير المجهور للحاء، والحاء هي النظير المهموس للعين، وعلى ذلك نقول: إن ما جرى هو إبدال بين الصوامت، لكنَّه إبدال وقع بأثر من المخالفة لا المماثلة هذهِ المرة، إذ جاء بعد

الحاء المهموسة في" حتى" تاء مهموسة، ومن باب ميل اللغة إلى التخالف، بمقدار ميلها إلى التماثل، ومن باب انسجام الظاهرة اللغوية وكل الظواهر البشرية القائمة على ثنائيات التخالف والتماثل، كما يقول البنيويون(40)، سعت الظاهرة في هذا اللفظ إلى إضفاء سمة الجهر على الحاء فصارت عيناً، ولعل ذلك تمثله المعادلة الفونولوجية الآتية:

ح[– مجهور] ← ع[+ مجهور] ت[– مجهور]/.

وكان ابن جني أتى على هذهِ القراءة بأمثلة من كلام العرب، من مثل: قولهم: " بُحثر ما في القبور"، أي: بُعثر، وضبعت الخيل، أي: ضبحت(41).

والحق، أننا ما زلنا نسمع امتداداً لهذا الإبدال في ما يعاصرنا من عاميات، ولعل المثال على ذلك يأتي من لهجة الصعيد المصري، إذ يقولون:" عتقول إيه"، بدلاً من: " حتقول إيه".

وبعد، فهذا بحث في ما سمي بالإتباع والإبدال، كما وردا في كتاب المحتسب لابن جني، وعليه، يمكن للدراسة أن تخلص إلى النتائج التالية:

– ليس ما سماه ابن جني الإتباع إتباعا إذ إن المصطلح صيغ، أولاً، بأثر من النظر في الشكل الكتابي، ويقصد منه تبعية صامت لصامت بما فوقه من حركات، أو بما تحته، وهي نظرة كتابية محضة؛ أما التحليل الصوتي، فيشير إلى أن الإتباع عند ابن جني هو من الإبدال الصوتي، إذ هو إبدال حركة بحركة، هذا، إذا نظرنا للحركة بوصفها صوتاً كبقية الأصوات.

– جاء الإعلال عند ابن جني على أنه من الإبدال، وهو ما تتوافق معه الدراسة، إذ هو يندرج ضمن إبدال الحركات الطويلة وأشباه الحركات.

– كثير مما أورده ابن جني على أنه من الإبدال، ليس من الإبدال في شيء، بل إن القول بالإبدال فيه إنما ينبع من النظر، كرة أخرى، في الشكل الكتابي، وحده، وأما التحليل للمنطوق، فأظهر الأمر على نحو مختلف.

– إن حالات الإتباع، والإبدال والإعلال جميعاً، تندرج في إطار الإبدال الصوتي، وفق رؤية صوتية معاصرة.

– يمكن القول، على ذلك، أن الإبدال الصوتي، وفق رؤية الدراسة، وكما هو في اللغة، يتوزع على ثلاثة محاور:

أ– إبدال الحركات القصيرة.

ب- إبدال الحركات الطويلة وأشباه الحركات.

ج- إبدال الصوامت.

الهوامش:

---

(1) لسان العرب، مادة شذذ.

(2) ابن جني، الخصائص، ج1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغــداد، 1990، ط4، ص 97- 98.

(3) ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق: د. علي النجدي ناصف، وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح شلبي، ج1، د.ن.، القاهرة، 1969، ط1، ص 37.

(4) ابن جني، الخصائص، ج2، ص 147.

(5) محمد علي الخولي، مدخل إلى علم اللغة، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمان، 2000، ط1، ص 64.

(6) الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، دار الفكر، ص 737- 738.

(7) ابن جني، المحتسب، ج1، ص 300- 301.

(8) المصدر نفسه، ص 161- 162.

(9) المصدر نفسه، ص 166- 167.

(10) المصدر نفسه، ص 177- 178.

(11) ابن جني، المحتسب، ج2، ص 41.

(12) ابن جني، المحتسب، ج1، ص 161- 162.

(13) المصدر نفسه، ص 161- 162.

(14) المصدر نفسه، ص 166- 167.

(15) محمد أبو عيد، براجماتية الكتابة العربية، دراسة في اللسانيات الاقتصادية، مجلة كلية الآداب، جامعة الخرطوم، العدد 27، ديسمبر، 2009، ص 6.

(16) ابن جني، المحتسب، ج1، ص 177- 178.

(17) ابن جني، المحتسب، ج2، ص 41.

(18) أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، 1985، ط3، ص 272– 273.

(19) ابن جني، الخصائص، ج3، ص 143.

(20) ابن جني، المحتسب، ج1، ص 161– 162.

(21) المصدر نفسه، ص 177– 178.

(22) ابن جني، المحتسب، ج2، ص 41.

(23) ابن جني، الخصائص، ج2، ص 338.

(24) ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، ج1، عالم الكتب، بيروت، ص 7.

(25) ابن جني، المحتسب، ج1، ص 76.

(26) محمد أبو عيد، أثر الكتابة الأبجدية في تحليل الأصوات الصائتة عند علماء العربية القدماء، مجلة جامعة قطر للآداب، العدد 28، 2006م، ص 216.

(27) ابن جني، المحتسب، ج1، ص 76.

(28) المصدر نفسه، ص 77.

(29) المصدر نفسه، ص 76.

(30) سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988، ط3، ص 127.

(31) ابن جني، المحتسب، ج2، ص 22.

(32) المصدر نفسه، ص 22– 23.

(33) ابن جني، المحتسب، ج1، ص 77.

(34) سيبويه، الكتاب، ج2، ص 182.

(35) ابن جني، المحتسب، ج1، ص 107.

(36) المصدر نفسه، ص 343.

(37) أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص 299.

(38) محمد علي الخولي، الأصوات اللغوية، النظام اللصوتي للغة العربية، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمان، 1990، ط1، ص 90، ص 94.

(39) ابن جني، المحتسب، ج1، ص 343.

(40) سمر الديوب، مصطلح الثنائيات الضدية، عالم الفكر، المجلد 41، يوليو، سبتمبر، 2012، ص 106.

(41) ابن جني، المحتسب، ج1، ص 343.